الفصل الخامس
تأطير البحث نظرياً

الفصل الخامس

تأطير البحث نظرياً

طبيعي ان كل عمل يكتب لا بد ان يخرج بنتائج واذا كانت النتائج غالباً ما تحمل واقعاً تجريبياً بالنسبة للبحوث التطبيقية. فانه من المُكَمِلْ العلمي لها تأطيرها نظرياً لتكون نتائج يمكن أن تُعد لبنة تضاف اليها فيما بعد لبنات لرسم معالم نظرية معينة.

ولعل ما يتمتع به علم اجتماع المعرفة من خصوصية وقدرة على الجمع بين فهمه "للقضايا الابستمولوجية على المستوى النظري، ولقضايا تاريخ الفكر على المستوى التجريبي" شجعتنا على تقديم محاولة متواضعة لتفسير مسيرة البحث التجريبية بطريقة نظرية الهدف منها تحديد ما يمكن تحديده من الواقع ونقله الى بناء النظرية الاجتماعية بدأً بالمنهج الفينومينولوجي وتفسير جدنز لنظرية البنية ثم توظيفنا لعلم اجتماع المعرفة كمنهج وعلم (نظرية) يعالج التداخل ما بين الظاهراتية كمنهج والنظرية الاجتماعية وعلى الشكل الآتي:

يؤكد المنهج الفينومينولوجي على "وصف الظواهر وصفاً دقيقاً والكشف عن اسباب ظهورها في أي شيء في الزمان والمكان ولكي تقوم بهذه المهمة فانها تستند على مفهوم رئيسي هو قصدية الوعي الذي يعني بالاساس التوجه نحو الموضوع من خلال الذات"[1].

(١) شحاتة صيام، علم اجتماع المعرفة وصراع التأويلات من العقلانية إلى جدل الذات، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٥، ص١٥٨ .

والمثال القيمي هو النموذج الذي يسعى افراد المجتمعات وجماعاته الاحتذاء به، قصدية الوعي والشعور باهمية وصعوبة العمل بمنطق التعليق تعليق الذات للباحث من أجل رسم صورة الواقع كما هو من خلال استجلاء صورة مثاله القديم على الأقل منذ منتصف القرن العشرين ومحاولة تبيان رصد التغير الاجتماعي الذي لحقه بتغير الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى العسكرية عقب الاحتلال الامريكي.

والمنهج الظاهراتي بقدر ما هو تركيز على مظاهر الوجود هو في الواقع الحال بحث في الوجود البشري كصورة كلية هي على الاقل اجتماعية او بشرية حال أن يكون موضوع بحثه المجتمع. فالوجود البشري وجود ظاهري له حيز يمكن ان نلمس فيه ما قد نعتقد انه قد اصابه شيء من التغير.

ولعل تحديدنا للمنهج الظاهري كان لدواعي من بينها مفاهيمه التي نعتقد وضوح البعض منها بشكل جلي والبعض الآخر بشكل اقل وضوحاً في موضوع بحثنا وقد تمثلت تلك المفاهيم بالعواطف والمواقف(١)

أ - العواطف:

"اجتماعيا بالطبع ليست هناك عاطفة خالصة صافية او مجردة او شعور نفسي خالص، بل دائما تَقَنُتُه بالتعلم الأجتماعي من خلال القالب الثقافي(٢)، وهذا بالضبط هو ما عملنا على ابرازه فلقد كان الشعور بالمجتمع هو أحد اساسيات المثال القيمي، كما أن حالة التهيء لقبول فكرة التغير التي بدأت

(١) اعداد فادية عمر الجولاني، علم الأجتماع الوجودي والنظرية الاجتماعية، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ص٣٩-٥٦ .
(٢) المصدر نفسه، ص٤١ .

ملامحها تظهر أواخر الستينات ما هي إلا حالة شعورية عاشها المجتمع العراقي وان كان شعوراً رتيباً متماشياً مع رتابة المتغيرات الأجتماعية التي اتسمت بالبط والتنظيم على خلاف حالة الشعور التي كانت رمزية في المعادلة الاجتماعية النفسية ذات التضامنين الصوري النفسي- السلوكي ابان فترة الحصار، وما حالة الانكفاء والعودة الى شكل المثال القيمي القديم مطلع الاحتلال الأحالة شعورية هدفها اظهار جوهر المجتمع العراقي بانه يشكل وحدة لا تقبل التغير من الخارج وفق محددات ثقافية جاء بها الاحتلال.

ب - المواقف

في جميع تصورات المنظرين في الفينومولوجيا ان الموقف هو "فكرة اكدت ان قصودات وتعريفات الفاعل، انما اولية ومشتركة، اضافة الى ان هناك تقبل لأهمية الآخرين، ومعلومات يكون الفعل بها ممكناً لتعريف الموقف او مضاد للحالة الخارجية، والخط العام لمبادئ الموقف سوف تتضمن معلومات لمعرفة وجهة نظر الفاعل والموضوعات الطبيعية والاجتماعية للحالات الداخلية والمشاعر، والاطار العام للعمل، وتظهر كلها في الاطار العقلي ضمن المعرفة ووضع التوقعات او الممكنات لسلوك الذات او الاخر"[1]، وهنا لم يكن بحث الموقف الاجتماعي الذي ساهم ببناء صورة الرمز يخرج عن استجابة وتأثير في الوسط ومن ثم الخروج بمعرفة نظرية وعملية كانت اوضحها في المجتمع العراقي ضمن الاطار العملي، السماح الأجتماعي (ان جاز القول) للمجتمع لابنائه بالعمل الاضافي بعد العمل الرئيسي للأيفاء بمتطلبات الحياة

(١) المصدر نفسه، ص٣٩-٥٦.

الصعبة التي فرضها الحصار الجائر. وضمن اطار المعرفة النظرية قدم المجتمع تبريراته اللفظية لهذه الحالة المستجدة مع المجتمع من خلال المقولات التي اصبحت متداولة في الشارع العراقي مثل (الشغل مو عيب).

و حين ذعاين هذه الجزئية مطلع الا حتلال ذجد العراقي قد تفاعل مع الموقف بذات الصيغة فهو ان تكيف عملياً مع الواقع المفروض عليه على الاقل اقتصادياً بانفتاحه على السوق العالمية إلا أنه نظرياً قد حَدَدَ السلوك الأجتماعي المصاحب لذلك بالمثال القيمي القديم حسبما اوضحت الدراسة الميدانية.

ان المنهج الظاهراتي بمفاهيمه الهوسرلية، التعليق، القصدية، الوعي وسواها ومفاهيمه التي ادخلت عليه عقب هوسرل العواطف، الجسد، الموقف، النفس، الحالة..الخ انما يوحي بوجود فكرة التماثل مع الواقع والتعامل بمنطقية عدم السماح لابداء الرأي تجاهه، فلا نقد يظهر بالموضوع من سلبيات، ولا ايمان بمبادئه تصل حد الاعجاب، انما حياة يعيشها الباحث ووصف لهذه الحياة بما عنده وعند المجتمع يعني بمشاعره مواقفه مشاركة بحيثيات المجتمع لا انقطاع عنه لتحقيق ما يسمى بالموضوعية. لان الموضوع والذات في المنهج الظاهراتي هو عينه موضوع واحد وهو ما يدعوه كارل يسبرز الذي يدعو لما يسميه بالشامل او المحيط الذي يشمل "الوجود في ذاته الذي يحيط بنا، الوجود الذي نكون عليه...نتحرر من العلاقة الموضوعية الضيقة مع بيئتنا، ونتجاوز الهوة القائمة بين الذات والموضوع عن طريق المشاركة"(١).

والمشاركة عندنا هي العيش بمنطق البيئة، والقدرة على استخلاص المخطط النظري لها، وبناء نظامها التجريدي في قالب يسمح للآخر بان يضع

(١) اعداد فادية عمر الجولاني، المصدر السابق، ص٣٩-٥٦.

ذلك القالب في موقع الـ هذا حين يتعامل معه ككيان نظري يحكم من خلاله على المجتمع الذي مثله.

والقول بهذا التعريف الأجرائي للمنهج الظاهراتي يقودنا الى العودة الى ما ابتدئنا به بحثنا عن نظريتي كريب وجدنز حول التوحيد بين المنهج والعلم وحول المزاوجة بين النظريات الصغرى والكبرى. ففي الحديث عن كريب، وجدنا ان المشاركة كانت المخطط النظري لهذا التوحيد فهي حديث عن المرونة والنسبية والذاتية..المرونة حين يكون منهجنا نشدان الحقيقة لا التمسك بقوالب نظرية دون أخرى وبذلك يصبح موضوع البحث ما هو عليه لا ما نريده عليه فهو الذي يحدد ما الذي يجب ان نضعه فيه لا ما نريده نحن ان نضعه فيه، والنسبية حين نؤمن بان الموجود هو احتمالي وليس المطلق فالأحتمالي يشير الى وجود الآخر حتى وان كانت صورته غائبة اما الذاتية فلا شك هي تعامل مع الجميع وفق المستوى الافقي من المعرفة ووفق المنطق الاركيولوجي حين نعود الى الماضي ونصعد منه الى الحاضر والمستقبل وبذلك تأخذ هذه النظرية الى عالم الواقع الذي نعيش لا واقع الفكر النظري للمنظر حين يرسم صورة تحليلية لمجتمع يأمل ان نكون على هواه.

وهذا بالضبط هو ما يجعل موضوع بحثنا قابلاً لفكرة التبدل عبر فترات زمنية لتبدل ظروفها فيصبح الموضوع (المثال القيمي) هنا كلاسيكياً منكفأً على ذاته وهنا منفتحاً على غيره، فيه الغث والسمين الصالح والطالح. وليس ما نريده نحن في أي صورة جميلة نرتبه.

هذه الصورة الواقعية هي ما تقودنا الى جدنز حين درس الممارسة، او ما يسمى بتشكيل البنية ولعل ميزتها هي ما يجعلها قريبة من موضوع بحثنا،

فالمثال القيمي هي نتاج الواقع، وليست أبداً هي قوة مفروضة على الواقع، ربما تلعب القوة دوراً في التأثير على الواقع، إلا ان النتيجة ان الواقع يعيد صياغة تلك القوة بمنطقه لينتجها بلغته فيصبح الناتج ابن بيئه، يقول جدنز "ان احد أغراضي من صياغة نظرية البنية هو ان اضع حداً لكل واحدة من المحاولات الامبريالية. ان مجال العلوم الأجتماعية من وجهة نظر البنية ليس استيعاب خبرة الفاعل –الفرد- او البحث عن صورة من الشمولية المجتمعية، لكن البحث عن اشكال الممارسات الأجتماعية المنظمة عبر الزمان والمكان"(١).

والحياة اليومية هي المكان الأنسب لملاحظة تلك الخبرة وتشخيص السلوك هو الأوثق لبيان ملامح العملية التي يسعى المنظر الى البحث عن صورها في بنائهِ القيمي من خلال الاعداد الأجتماعي الذي يُعده المجتمع لافراده.

وأن القاء نظرة على الواقع العراقي من خلال تتبع نمط سلوكيات ابنائه وفق التحليل الذي اشرنا اليه دليل حي على مصداقية جدنز من جانب تركيزها على الواقع. حيث وجدنا ان المثال القيمي عبر مراحل بنائهِ غالباً ما ارتكز على الممارسة، فالممارسة التي نهجها المجتمع بدأ من التغيرات الملحوظة على المجتمع العراقي في عهدي مدحت ونامق باشا وانتهاءاً بالممارسات التي نهجها في ظل الاحتلال، تمخضت دوماً عن بناء قيمي عكس تلك التوجهات.

ربما هناك الكثير من الممارسات التي لم يكن لها تأطير نظري إلا ان الممارسات التي لها صلة بقيم المجتمع العراقي وتمس حياته الاجتماعية من

(١) احمد زايد، آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع-نظرية تشكيل البيئة، مصدر سابق، ص٦٩.

جانب القيم حظيت باشبه ما يمكن تسميته بالتابو فالعراقي قد سمح بالتغير على الصعيد الاقتصادي مثلاً وواكب مستجدات الظروف بمجملها إلا انه لم يسمح للقيم بالخروج عن الاطار العام لتراثه القيمي فعلى سبيل كان التغير قد بدأت تأتي ثماره مطلع السبعينات على الجانب المادي، وسمح بالمقابل لمثاله القيمي بالتحرك ضمن اطار هذا التراث فكان تغيره (المثال) مقبولاً، إلا انه وفق التغيرات التي جاء بها الاحتلال سمح بالتغير في الجوانب المادية، لكنه عاد بمثالهِ القيمي وبشدة الى تراثه القيمي ليس التسعيني او الثمانيني حتى بل حتى الخمسيني. فنشط الفكر الديني الى حدٍ ما وعادت ظاهرة الحجاب وبقوة الى الساحة العراقية في وقت معظم العالم يدعو بل ويعيش ظاهرة تنتقد الحجاب ونود ان نذكر ان العودة الى ذلك التراث هو إرادة شعبية محض فلا الحكومة ولا أي مؤسسة سياسية تعمل على ذلك.

ان الظاهراتية ونظرية جدنز لم تكونا المحورين الذين تم درس المثال القيمي لها والى جانب ذلك نجد ان علم اجتماع المعرفة هو المحصلة التي تجمع الظاهراتية ونظرية الممارسة. من زاوية، اهتماماته البحثية والمنهجية، فالمثال القيمي هو أي فكر اجتماعي يوجه السلوك الأجتماعي، مصدره الواقع كما اسلفنا وهذه متغيرات علم اجتماع المعرفة الذي يجعل تبادل الفكر والواقع محاور بحثه الرئيسة، فهو يعمل على تحليل ودراسة "مجموعة التصورات النظرية التي تسود في فترة تاريخية اجتماعية محددة"(١).

وقد وجدنا من خلال تتبع مراحل تطور التغير الأجتماعي المثال القيمي في تصورات نظرية كانت بمثابة محركات سلوكية لمجمل نشاط الحياة اليومية

(١) شحاتة صيام، مصدر سابق، ص٨٧.

وقد أخذ علم اجتماع المعرفة على عاتقه مهمة مزدوجة ما بين قراءة تفاصيل الحياة اليومية وما بين التنظير لها، أي ان قراءة الواقع اليومي حظيت بدرجة اكبر "وهو يهتم في المقام الاول بما يعرفه الناس انه واقع في حياتهم اليومية، أي حياتهم غير النظرية او قبل النظرية، وبعبارة أخرى يجب ان تكون المعرفة الشائعة وليس في الافكار هي البؤرة الجوهرية لعلم اجتماع المعرفة، وهذه المعرفة بالضبط هي ما يؤلف نسيج المعاني التي من غيرها لا يمكن ان يوجد أي مجتمع"(١).

يحمل صفة الحياة، ويكاد يتميز على غيره من الفروع التصاقه بالواقع المعاش على مستوى الممارسة "بوصفه نظرية مكيفة او مهينة لحقل التجريبي لعلم الأجتماع"(٢).

الى جانب اهتمامه ببحث النظرية الاجتماعية على المستوى النظري الصرف، بل ويذهب بيرغر ولوكمان الى اناطة مهمة كبيرة له فيما يخص مستقبل النظرية الأجتماعية وان كان البحث التنظيري فيه قد تأخر الى حدٍ ما حيث يقولان في البدية الاجتماعية للواقع "فان مفهومنا لعلم اجتماع المعرفة يحمل ايضاً بعض التبعات العامة للنظرية الأجتماعية، بل لعلم الأجتماع ككل. ويقدم منظوراً مختلفاً في عدد من مجالات الأهتمام بالبحث الأجتماعي"(٣).

(١) بيتر بيرغر، توماس لوكمان، البنية الأجتماعية للواقع، ترجمة: د. ابو بكر احمد بافادز، الاهلية للنشر والتوزيع، الاردن، ط١، ٢٠٠٠، ص٢٨ .
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧ .
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧.
(*) واي نظرية تؤمن بهذا الخط العام يمكن ان تحل محل نظرية جدنز.

وأخيراً نود ان نستوضح امراً ونبين غاية علمية قد سعينا الى ابرازها..وهي ان المنهج الظاهراتي والتوجه نحو بحث تفاصيل الحياة اليومية واستخلاص القضايا النظرية من بين ثناياها وقد تمثلت هنا بنظرية جدنز وعلم اجتماع المعرفة* كعلم يسعى الى صياغة قوالبه النظرية من التجريب، يشكل طرحاً لقضية نظرية تصلح نقطة انطلاق لدراسة لاحقة و هي على الشكل التالي:

تتداخل المتغيرات الداخلية الذات، الوعي، القصد، العواطف...الخ مع المتغيرات الخارجية الواقع، اللغة، الجماعة...ضمن شبكة التداخل ما بين ما يعكس المتغيرات الداخلية والخارجية كفكر حددهما الواقع الاجتماعية بظرفيتيه الزمانية والمكانية واطارهما الاجتماعي مما يرسم صورة للواقع الاجتماعي ولشخصية الفرد في المجتمع ويحدد غطاها السلوكي والحضاري.

الخاتمة

ان الانتهاء الى إقرار نتائج نهائية، قد يثير مسألة نقاشية، إذ لا نهاية في الأحكام الانسانية، لأن الانسان ككائن مفترض وواقعي، لا يكاد يستقر على حكم ما الا وعوادي التغير تدب فيه بعد حين.

فينبري لايراد الحجج والبراهين التي يؤكد فيها مبررات تحوله من موقف أو راي الى موقف أو رأي آخر.

وطبيعي أن كثيراً من مواقفه المتغيرة ما تطال تطلعات الحياة المادية، بشكل اسرع مما تطال القيم المعنوية، وتلك لا شك مقولة لاوكبرن ونيمكوف، لم نأتي بشيء جديد عليها.

الا اننا نستدرك على نظريته، أنه لا يوجد بالضرورة تغير في جميع القيم المعنوية، وذلك ان القيم الدينية على سبيل المثال قيم ثابتة لا تتغير، وان النص الديني في العصر الحاضر، هو نفسه الذي كان زمان الانبياء عليهم الصلاة والسلام.

نعتقد بأن تفسيرات تلك النصوص هي التي تتباين وتختلف الا إن تلك التفسيرات لا تسير بنفس الوتيرة التي تسير بموجبها التغيرات التي تحصل في الجوانب المادية.

أما التغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي فأنه صحيح تنطبق عليه نظرية أوكبرن، ومن ثم اذا اسلمنا بهذه النظرية، فأنه لا شك يكون لهذا التغير اسباب مادية وواقع اجتماعين فيحمل هذا الواقع البنيات الذهنية التي تعبر عنه وتغدو كل بنية ممثلة للواقع الذي نبعت منه.

و ما دا فع حال المجتمع العرا قي الا خا ضع لـهذا التفسير، اذ كان لكل مرحلة من مراحل المجتمع العراقي سواء مراحل التطور السياسي، أو مراحل التطور الاقتصادي..ز الخ بنى ذهنية عكست أوضاع تلك المراحل.

ففي الـقرن التا سع عشر وحـتى مطـلع الخمسينات امـتاز المـثال القيـمي بالثبات الى حد كبير، فلما وصلت آثار الحرب العالمية الثانية الى العراق فانها جعلته مع احتكاك بالعالم الخارجي وثقافته بشكل اكبر مما يجعله مهيئاً لقبول فكرة التغير الاجتماعي حسبما او ضحت دراسة الراوي في المتن، واستمر الاجتمـاعي يسـير وفـق وتيـرة معتدلـة جـل ومخطـط لهـا منـذ سـبعينات القـرن العشرين حتى مطلع الحصار الشامل على العراق وقد كانت له آثار سيئة كان من اشدها الظرف الاستثنائي الذي عاشه المجتمع العراقي في جميع انساق بنائه، فكانت الانتقالات الاجتماعية خلال هذا الظرف خارجة عن التخطيط ومقرونة بالنجاح في الكسب الأقتصادي مما اثر على معالم المثال القيمي التقليدي.

وان كان مثال الظرف الاستثنائي القيمي طارئاً كما هو معلوم، كما ان البنى الذهنية لا تكتمل ما بين عام او عامين حسب ما يقول اوكبرن، الا انها مما لا شك مما لا شك مثلت تغييراً على المستوى النفسي العراقي خاصة قد تعرض العراق فيه الى هجمة اعلامية منظمة قادتها الولايات المتحدة وحلفائها، ساعدتها كثيراً في اسقاط الدولة العراقية الحديثة في ٢٠٠٣/٤/٩.

اما على الصعيد النظري فان الاتجاه الحديث في النظرية الاجتماعية في توفيقه بين النظريات الكبرى والنظريات الصغرى كان اقرب في التفسير الاجتماعي لمجمل السلوك الاجتماعي لافراد المجتمع العراقي من أي من

النظريات الكبرى أو الصغرى و هو ما تضح من درجة تماثل الفرد كوحدة تحليل يعتمد من قبل النظريات الصغرى مع المثال القيمي كوحدة تحليل يعتمد في النظريات الكبرى. فكان الفرد ومثاله القيمي وحدة تحليل واحدة بالنسبة لما استخدم من تحليل بواسطة منهجا علم اجتماع المعرفة والمنهج الظاهراتي على الاقل حسب تصور الباحث (القابل للطعن علمياً).

من هنا كانت نظرية التشكيل البنائي الحديثة من حيث فكرتها العامة وان لم يكن بالضرورة من حيث تفضيلاتها الجزئية هي الاكثر قدرة على التفسير لأنطوائها على مفاهيم الدوافع اللاشعورية وتميزه بين الوعي الخطابي والوعي العملي مقابل ربطه العقل بالقوة بمعنى ان الفاعل لديه المقدرة على التأثير والأهم من ذلك ان الفاعل يكف عن كونه فاعلاً إذا افتقد المقدرة على التأثير[1] وهذا بالضبط ما وجدناه في دور الفاعل العراقي في بناء مثاله القيمي التقليدي (القديم) حيث كانت له القدرة وكيف انتهى به الامر الى الانكفاء الى الاسرة حين افتقد القدرة على التأثير حسبما اوضحت نتائج الدراسة في زمن الاحتلال.

ومن جهة اخرى كان المنهجان منهج علم اجتماع المعرفة والمنهج الظاهراتي هما من انسب المناهج في رؤيتها للواقع الاجتماعي و عدم الاعتماد على تفسير نظري احادي بقدر ما هو تكاملي بين رؤيتين أو اكثر حسب تحديه أيان كريب وجدنز وسواهما.

ومن حيث تضمن المنهج الظاهراتي مفاهيم التعليق والقصدية والشعور والوعي وهي مفاهيم تجعل تصوير الحقيقة اقرب الى الواقع فالفرد يعلق ذاته ويتقصد نوع الحقيقة بدوافع داخلية تتمثل بالشعور وخارجية تتمثل بالوعي.

(١) مصطفى خلف عبد الجواد، مصدر سابق، ص٤٤٦.

و هذه المفاهيم كانت حاضرة في سلوك الفرد العراقيو هو يبني تصوره القيمي عبر المراحل التاريخية التي مر بها العراق في العصر الحديث على سبيل المثال لا الحصر مفهوم الوعي الذي ادركه العراقي تجاه الاحتلال كان حافزاً لأنكفائه على اسرته مثلاً كما كان وعيه من قبل حاضراً على المشاركة في بناء مثاله القيمي و كل ذلك بفعل الا عداد الاجتماعي الذي يغرسه المجتمع في نفوس ابنائه.

والله من وراء القصد